

كورورنا في عالم سورية

حظيت في مطلع شهر نيسان الحالي بموعد مع عيادة في برلين من أجل فحوص طبية عامة. في غرفة الانتظار أعطيتُ كمامة من مساعدة كانت تضع كمامة على فمها وأنفها، قبل إدخالني إلى الطيبة التي كانت تضع كمامة بدورها. أخذ الأمر ثانية أو ثانيتين قبل أن أنتبه أنني وضعت الكمامة على عيني، وليس على أنفي وفمي. كأنما "تذكرت" يداي شيئاً قمت به كل ليلة في عامي السادس عشر، وكان في سجن تدمر في سورية. خلال عام 1996 ذلك كان يفرض علينا، المعتقلين السياسيين من خلفيات سياسية وإيديولوجية مختلفة أن ننام مُطمّشين، وعلى جنوبنا حصراً، وألا نتحرك حتى أثناء النوم.

يفترض بالكمامة هذه المرة أن تحمي من شبح كورونا الذي يجوس آفاق برلين والعالم، ناشراً فيها الذعر أكثر مما نثر شبح ماركس وإنجلس الشيوعي الذعر في أوساط البرجوازية الأوروبية في أواسط القرن التاسع عشر. السيد الجديد، ملك الملوك المتوج كوفيد التاسع عشر أقوى من ترمب وبوتين، من أوربا والصين، أقوى حتى من سجاني تدمر وصيدنايا المتمرسين بالتعذيب والقتل في "سورية الأسد".

في أوضاع اللايقين واللاتوقع الراهنة، يتساءل اللاجئ اليوم: ألم نر هذا كله من قبل؟ ألم يسبق أن خبرنا العزل والحجز في نطاقنا؟ نعيش معاً أزمة كورونا بعد أن لم نكن معاً في أزمت أخرى، عالمية بصورة مغايرة. لا أستطيع أن أعيش زمن كورونا كأنما لم يكن لي زمن قبله، ولا أن أوول أزمة كورونا دون الرجوع إلى أزمة البلد المهجور هناك. بلى، كان هناك زمن، وكان استثنائياً وراضاً بقسوة. والأسوأ أنه مستمر ومتجدد اليوم.

قبل أقل من عام بدا لي أننا على مسافة أزمة كبيرة واحدة من كارثة عالمية. كان في بالي مخاطر انزلاق سوري لبلدان أكبر من سورية مثل مصر أو إيران، وليس كوفيد 19. ليس مؤكداً أننا في الكارثة العالمية، لكن ليس مضموناً أننا لسنا فيها. وما يظهر إلى اليوم أن التضامن الذي لم ينله السوريون طوال تسع سنوات أقل وفرة في العالم حتى من أسرة المشافي والمنافس. ما يقوله مسعى ترمب لامتلاك

شركة ألمانية تعمل على صنع لقاح ضد الفيروس هو أن الفيروس ليس أسوأ ما نجابه من مخاطر.

ما يميز أزمة عالمية مفاجئة وسريعة الانتشار أننا على اختلاف البلدان والثقافات في مواقع متقاربة من حيث الجهل، محتاجون لمحو أميتنا معاً وتعلم القراءة معاً. يمحو الوباء الفوارق بين الدول والمجتمعات، وأول ما يمحو الحدود التي تعمل الدول على تمثيلها مثلما فعلت في مواجهة "أزمة اللاجئين". يقول الفيروس إنكم عالم، وتقول الحكومات إننا عوالم منفصلة. وأمام تحدي المجهري الذي لا يرى نبداً كلنا من مواقع قريبة من الصفر، هذا إلا إذا كنا سالفوي جيحك الذي استطاع أن يؤلف كتاباً بينما لا يزال أكثرنا يتهجأ الحروف الأولى. الحاجة إلى التواضع وفتح العيون كي ترى هي أول ما يلزم في مواجهة غير المسبوق، كي لا نخوض على طريقة الجنرالات واليسار الغربي الحرب السابقة إلى الأبد. ليست هذه حرباً أصلاً مثلما أمكن لماكرون أن يقول ست مرات في خطابه في 16 آذار، ومثلما يستطيع جيحك أن يقول كذلك. الأرجح أن باراديغم محاربة الإرهاب كامن وراء هذا التشخيص، وهو ليس بعيداً عن اعتبار الفيروسات إرهابيين، أو عن سلوك الطريق المعاكس: الإرهابيون فيروسات، وقد يشمل ذلك عموم اللاجئين والمهاجرين. في هذا كان فيكتور أروبان، رئيس الوزراء الهنغاري، واضحاً: كورونا والمهاجرين وجهان لمشكلة واحدة، الحركية البشرية التي ينبغي الحد منها. اليمين الشعبوي في ألمانيا وغيرها ليس بعيداً عن ذلك، وتفكيره السياسي يترجم بسهولة إلى لغة العدوى والمناعة. الإبادة genocide عندئذ يمكن أن تكون الإجراء الصحي الأنسب. كان بشار الأسد قد تكلم في حزيران 2011 على مؤامرات وجرائم، وعلى إبادة الجرائم ومناعة الجسم. لم يكن الخيال السياسي للنازيين بعيداً عن ذلك: لقد أُرِداو "تطهير" ألمانيا من الأعراق المنحطة والمرضى واللاجتماعيين، لتسلم للدم الآري النقي. بعد ستة أعوام من خطاب الجرائم والإبادة والمناعة، وفي آب 2017، أمكن للرئيس الوريث أن يتكلم على مكسب من وراء حربته: "مجتمع متجانس"، تخلص من عناصر التنافر والشقاق. البيوسياسة الخاصة بالطبيب بشار الأسد قتلت فوق نصف مليون خلال تسع سنوات وهجرت فوق ستة ملايين خارج البلد. وقبل أسابيع قليلة، أجاب وزير صحته على سؤال عن وجود إصابات بالفيروس في سورية بتحية قوات النظام التي "طهرت سورية من الجرائم!"

لا يساعد متخيل الحرب على مواجهة جائحة كورونا. يساعد فقط في خلق أعداء من السكان وصنع حرب. لكن شيوع هذا المتخيل يشير إلى قوة غريزة الدولة السيدة التي لا تجيد غير الاستنفار الحربي في مواجهة المخاطر، حتى لو تولد الخطر من كائن لا يرى. السيادة أفقرت الخيال واللغة، فلم يعد لدينا كلمات وصور لوصف الأزمات غير ما يشتق من الخطر والحرب، وما يغلغ الحدود، وما يقتضي تدخل البوليس والجيش، وما يعزز احتكار العنف "المشروع". لدى الدول السيدة مطرقة العنف المشروع، وهي تفكر في كل شيء كمسار يُدق، حتى لو كان هذا الشيء فيروساً.

وأخطر من ذلك، يخلق متخيل الحرب بالفعل أعداء غير منضبطين بالقدر المطلوب، يلزم ضبطهم بالقوة. نتحول على هذا النحو من مواجهة الجائحة موحدين، إلى خلق انقسامات جديدة، يغلب أن تسير على خطوط انقسامات أقدم.

الشجاعة هي ثاني ما يلزم في هذه اللاحرب، وخاصة في عالم يعرض جنباء كثيرون فيه قدراتهم الحربية ضد من هم أضعف بكثير، عالم انحطت حروبه إلى تعذيب وإبادات. ليس هناك "حرب ضد الإرهاب"، لا ينبغي لأحد أن يخدع نفسه في هذا الشأن. هناك فقط تعذيب، تستهدف فيه دول مسلحة بالطيران وأسلحة الدمار الشامل والأسلحة النووية، مجتمعات أضعف بكثير، وقلم يقتصر الضحايا على الإرهابيين المفترضين. هذا ظاهر في سورية، وفي فلسطين، وفي كل مكان بالفعل. هذه الحرب المزعومة شرعت التعذيب عالمياً، وأوهنت الديمقراطية عالمياً. أقول إنها حرب تعذيبية، وأن هذا مفهوم أكثر أمانة وتمثيلاً من "حرب ضد الإرهاب" لا حرب فيها. وفي كنف الحرب التعذيبية سارت العنصرية إلى الأمام في كل مكان. التعذيب يخلق فروقاً جوهرية بين من المعذبين ومن يقومون بالتعذيب، سواء بجلد المعتقلين وتجويعهم وإذلالهم في أقبية أجهزة المخابرات، أو ربما برمي البراميل المتفجرة من السماء فوق السكان المدنيين، أو قصف المشافي والأسواق بالفوسفور الأبيض والقابل الفراغية مثلما تمرست بالقيام به القوات الروسية في سورية. منذ ان نتكلم على فروق جوهرية فإننا نتكلم على عنصرية. العنصرية علاقة تعذيب، علاقة بين معذبين ومعذبين. الشجاعة هي التوقف عن هذا العبث، وهي تغيير المسار.

اليوم نحن حرفياً نتجنب التقاء غيرنا ونُنصَح طوال الوقت بذلك، وليس واضحاً أننا نفكر بغيرنا، أو أننا نفكر مع غيرنا. التفكير بغيرنا ومع غيرنا، لقاء غيرنا بالأفكار إن تعذر اللقاء الفيزيائي مؤقتاً، هو ثالث ما يلزم. الحجر الصحي لا يحول

دون ذلك، بل هو دعوة إليه. نحن في أزمة عالمية، والصحيح أن يشارك في التفكير فيها والعمل على تجاوزها والتخطيط لما بعدها أكبر عدد من الناس في العالم. هذا فوق أن من الضروري أن نحمي لياقتنا على التواصل واللقاء، أن لا نركن لعادات تولدت في مناخ الأزمة، وتحمل الأزمة في باطنها. قد لا ينحرف الانعزال وهذا التذرذر الجديد في أجسادنا، وقد نتخلى بعد حين عن "سلام ووهان"، السلام على بعضنا بالأقدام حين نلتقي، لكن الهلع والانعزال في عهد السيد الجديد كوفيد 19، ووكلائه من الدول السيدة الباحثة عن حروب، قد يصنعان عادتهما الهلعة المنعزلة، ونمط الشخصية الهلعة المنعزلة الذي يناسب الدكتاتوريات العاتية في كل مكان. وما تقدم ذكره عن متخيل الحرب يشير إلى الحاجة إلى خوف الجمهور، أو إلى أن يكون الميل إلى الهلع والانعزال اليوم استثناءً لهلع وانعزال سابقين: من الإرهاب.

قد نخرج من هذا العارض الصحي العالمي بخسائر كبيرة أو غير كبيرة في الأرواح، وبعض التقديرات تصل إلى 1% من سكان الكوكب، أي فوق 70 مليون. لكن صحة العالم كعالم في خطر. كورونا هو فقط اختبار يظهر مرض العالم، افتقاره إلى الشباب والعزيمة، استسلامه للخوف واليأس، مقاومته للتغير مثل شيخ هرم، ورفضه تقبل مخاطر اللقاء بالغير لمواجهة المخاطر. الغير هو الخطر، يقول القليلون الجدد في كل مكان.

ما يلزم اليوم هو حالة استثناء حقيقية، مثلما كان دعا والتر بنيامين في مواجهة الاستثناء المطبوع. لقد بدا جيورجيو أغامبن وهو يفكر في كورونا كذريعة لحالة استثناء يراها قائمة أصلاً كمن يبحث عن المفتاح الضائع تحت الضوء (أي حيث هناك نظرية)، وليس حيث ضاع فعلاً (أي حيث المشكلة). وهذا تماماً مثلما فعل ماكرون الذي يبحث عن الفيروس في ميادين الحرب، حرب سابقة أخرى. كسوري أعرف أن المشكلة في حالة الاستثناء المؤبدة المفروضة في بلدي منذ عام 1963 أنها حرمتنا من حالة استثناء حقيقية، مست الحاجة إليها غير مرة خلال ما يتقرب من ستة عقود. إذا كنا سلفاً في حالة استثناء، وإذا كنا نعلم جيداً أنها تستخدم لتخويفنا وإخراشنا وتفريقنا بذريعة الأمن القومي، فماذا نفعل حين يقتحم طارئ استثنائي حياتنا؟ لا شيء. يورث الاستثناء المديد تراخياً مديداً وتبلداً فكرياً وأخلاقياً، وليس تأهباً وعيوناً مفتوحة.

قبل ستين عاما قالت حنه أرنت إنه لا يمكن التنبؤ بما يحدث في المستقبل، لكن نستطيع أن نعدّ، فننزع عن المستقبل المجهولية والخوف. قالت كذلك إن ما وقع في

الماضي لا ينعكس، لكن يمكننا الغفران. في عالمنا هناك الكثير ما لا يغتفر، تحديداً معاملة الناس كفائضين، مثلما قالت مؤلفة أصول التوتاليتارية، ومثلما عرف مليون سوري من إدلب خلال الشهرين الأولين من هذا العام فقط. وفي هذا العالم القليل جداً من الوعود، أي القليل جداً من المستقبل. لذلك قد نشفى من كورونا، لكن لا الماضي يتراجع لأن نازعي الإنسانية ممن يخضون حروب التعذيب بأسلحة متطورة لا يطلبون غفراناً من أحد، ولا المستقبل يفسح لأن الفاعلين الكبار لا يعدون بشيء. نعيش حاضراً خانقاً، لا نكاد نستطيع الحركة فيه، كحال المعتقلين في أقبية التعذيب عند بشار الأسد. العالم في أزمة من فقدان الوجهة واختناق المخيلة، في سجن اللابدائل.

نعلم بعد ذلك أن الأزمة مركبة ومزمنة. عدا العنصرية وحروب التعذيب، و عدا الأزمة الصحية الحادة الراهنة، ثمة الأزمة البيئية الواسعة النطاق والطويلة الأمد. وهذه كلها مشكلات عالمية، تدفع نحو تفكير عالمي ونضال عالمي. ليس في ذلك ما يدعو إلى التخلي عن الدول القائمة، أو عن الحاجة إلى تفكير ونشاط محلي. بالعكس، ربما نحتاج إلى دولة أكثر، لكن إلى سيادة أقل. يمكن التفكير في الدول كهيئات وسيطة بين شبكات من المؤسسات العالمية السيدة وبين مجتمعات محلية. وهو ما يثير بالطبع أسئلة عن مدى ديمقراطية المؤسسات العالمية المأمولة وتمثيليتها وشرعيتها. هذه من القضايا التي تدعو الأزمة الحالية إلى النظر فيها. الأمم المتحدة وهيئاتها ليست مثالا يحتذى للأسف، ولا هي إطار للتفكير في هذه الأزمات. ومنذ الآن يظهر أن القوى الأكثر رجعية ومقاومة لتحول عالمي هي القوى الأكثر انتفاعاً من الأوضاع الحالية القائمة على الامتياز، والتي تشغل المواقع الأفضل نفاذاً إلى الثروات والمعلومات وأسلحة حروب التعذيب. تقوم إيديولوجية هذه القوى على مبدأ صاغته مارغيت تاتشر قبل 40 عاماً: There is no alternative، أو باختصار: TINA، أي لا بديل. هذا هو شعار القدرية النيولبرالية المسيطرة عالمياً منذ ثلاثة عقود على الأقل. وهو بالمناسبة الشعار الذي استخدم لتسوية بقاء حكم إبادي في سورية. هذا عالم يجب أن نقول له وداعاً، إن كنا لا نريد أن يصير العالم سورية كبيرة.

الصين ليست بديلاً كذلك، مثلما يبدو أن رئيس منظمة الصحة العالمية يعتقد. عيوب الديمقراطية الليبرالية حقيقية ومتزايدة، لكن نظاماً شبه عبودي يحتكر المعلومات ويقرر وحده الفعل وعدم الفعل في مواجهة المخاطر، فوق احتكار

"العنف المشروع"، ليس بديلاً. النظام الصيني مضاد للبدائل وللتغيير، قدر سياسي لمحكوميه مثل نيولبرالية مر غريت تاتشر، ولا ينبغي أن يكون قدراً عالمياً.

نحتاج اليوم إلى خيال سياسي جديد يربط بين الأزمات الكبرى الثلاث: العنصرية والبيئة والصحة. ما يعول عليه في المستقبل القريب ليس ما يأتي من طرف الحكومات، بل طرق التفكير والاجتماع الجديدة، والحركات التي يمكن أن تنشأ، وانعتاق الخيال بفعل تكسر الواقع الخائق، وتقارب ونضال المتضررين من العنصرية والقدرية الرأسمالية وعبادة الربح. كان شعار المنتدى الاجتماعي في بورتو اللغري عام 2001 هو أن عالماً آخر ممكن. وأرى من جهتي أن الإمكان يصنع إذا قمنا بما يتعين علينا القيام به في أوضاع الأزمة التي تفتح عيوننا على ما لا نرى في أوضاع عادية، وإذا غضبنا وغيرنا عاداتنا وتصرفنا بعدل، وإذا توقفنا عن مقاومة المعرفة عن غيرنا وعن العالم. أي باختصار إذا أحدثنا استثناءً، فرقاً حقيقياً عما ألفنا. الحدث، يقول روكو رونشي، ينتج تحولات لم تكن في نطاق الإمكان قبله، ويولد إمكانات حقيقية. هذه هي "فضيلة" كوفيد 19، بحسب الفيلسوف الإيطالي. الأزمة اليوم قد تكون مُسرِّعاً في اتجاه تولد إمكانات جديدة، مغايرة. إن ضاعت الطاقة التوليدية للحدث، فيحتمل أن نتخبط لسنوات، ربما لجيل أو أكثر، في أحوال أزمة فقدان الوجهة، وهي أزمة مناسبة لمن يفضلون حاضراً مؤبداً، أي للأقوياء والأغنياء.

حال الاستثناء الحقيقية هي ثورة في أوضاع عالم اليوم الذي يخنق نفسه بنفسه، خروج من أزمة فقدان الوجهة إلى حيث تستطاع الدهشة والغضب من أننا عشنا في حاضر مؤبد. في سورية تفجرت ضد الاستثناء المطبوع ثورة، سحقت ورفع في وجهها شعار: TINA! ويعيش اليوم نحو 16 مليوناً من السوريين في سجن اللابدل. قد يرتفع العدد إلى ثماني مليارات في عالم سوري إن ترك للأقوياء أن يقرروا في شأن البدائل، وفي شأن الاستثناء.

ينبغي أن لا نعود إلى سجن عالم اللابدل الذي توضع الكمادات فيه على الأعين، و"أن نقاتل ضد من يدعوننا إلى أن نعود كما كنا من قبل"، مثلما قالت سنثيا فلوري قبل نهاية آذار. نقاتل ليس من أجل أن تنزل الكمادات من العيون إلى الأنوف والأفواه، بل من أجل عالم بلا كمادات، عالم بهواء أنظف وتحكم أفضل بالطوارئ.

ياسين الحاج صالح